ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq

Light and shadow in the Poetry of Dhafer Al-Haddad

Dr. Hamada Turki Zuaiter

Iraqi Ministry of Education /General Directorate of Salah al-Din Education /

* *Corresponding author: E-mail* :
hmadttrky242@gmail.com
07701740389

***Keywords*:**
Light
Shadow
poetry
Zafer Al Haddad

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 6 Sept. 2020
Accepted 22 Sept 2020
Available online 26 Nov 2020
E-mail
journal.of.tikrit.university.of.humanities@tu.edu.i
E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

A B S T R A C T

The Phenomena of light and shadow occupied people's minds by seeing their sources on the earth and the sky . It influenced their culture and beliefs from ancient times and worked hard to explain them . It took an area of interest in international literature in general and Arabic literature in particular . When we read Zafer Al – Haddad's poetry , we find that lights and shadows are distinguished . This was in the duality of light and shadow . Thus the research tackles the relationship between them , their indirect values, their roles in evoking the worlds of beauty, and the foresight of dreams and dreamy spaces through the sense of sight . The role of the movement and stillness of light and shadow in awakening sensitive feelings and the dimensions of beautiful artistic images.

© 2020 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.27.9.2020.07

الضوء والظل في شعر ظافر الحداد

د. حمادة تركي زعيتر / وزارة التربية / المديرية العامة لتربية صلاح الدين

الخلاصة:

شغلَتْ ظاهرتَي الضوء والظل أذهان الناس عبر رؤية مصادرها في الأرض والسماء ، وَأثَّرَتْ في ثقافاتِهم ومعتقداتهم منذ قديم الزمان ، واجتهدوا في تفسيرها ، وأخذَتْ مساحة من الاهتمام في الأدب العالمي بشكل عام ، والأدب العربي بشكل خاص ، وَوجدْتُ في شعر ظافر الحداد ظهوراً متميزاً للأَضواء والظلال ، جاءَ ذلك في ثنائية الضوء والظل والعلاقة بينهما ، وَ القيم غير المباشرة لهما ، ودور المخيلة الشعرية في استحضار عوالم الجمال واستشراف المرئيات والفضاءات الحاملة عبر حاسة البصر ، ودور حركة وسكون الضوء والظل في إيقاظ الأحاسيس ، ورسم ملامح وَأبعاد الصور الفنية الجميلة.

المقدمة :

الحمدُ للهِ الرحمن الذي علَّم القرآن وخلقَ الإنسان وعلَّمَهُ البيان والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ... أما بعد :

فإنَّ الشعراء في قديم عصورهم وحديثها اهتموا بظاهرتَي الضوء والظل فلا تجد نصاً إلَّا وشكَّلَتِ الأضواء والظلال عنصراً فاعلاً في أبياته ، إذ أنَّ الأمرَ يتمُّ برصد الظواهر المرئية ووصفها.

إنَّ حاسة البصر من أكثر الحواس تأثيراً في استشعار الموجودات وتحديد أبعادها ، تؤازرها الحواس الأخرى ، ولا تستطيع هذه الحاسة التدقيق في الجزئيات واستشراف الآفاق إلّا بوجود الأضواء والظلال التي تساعد في رسم معالم المناظر بوضوحها وقتامتها ، وكلما كانت المناظر جالبة الأنظارَ ضاعفت حاسة البصر من فاعليتها في رصد الموجودات وحفظ أبعادها في الذاكرة ، لذلك جلبت هذه المناظر اهتمام الشعراء ، فوصفوها بما يتناسب مع أشكالها وما تثيره في نفوسهم من مشاعر ، ووظفوها في موضوعاتهم الشعرية بدلالاتها المادية والمعنوية.

ومما استرعى انتباهي ذكر ظاهرتي الضوء والظل في شعر ظافر الحداد الذي عاش في مصر ، وهو من شعراء العصر العباسي المشهورين ، ذلك العصر الذي امتاز بوفرة العطاء الشعري في أغراض الشعر كلها على مدى قرون عدة ، ووجدت أنَّ هذا الشاعر تعامل مع هذهِ الظاهرة بما يدلُّ على قوة شاعريته وسعة ثقافته وتوقد ذكائه ، وقد اختار لغته الشعرية المعبرة عن موضوعاته أفضل اختيار فجاءت صوره الشعرية بطريقة فنية تدل على ذوقه الرفيع في رسم ملامحها وتحديد أبعادها ، ودعاني ذلك إلى دراسة هذه الظاهرة في شعره والبحث في موضوعاتها ، وقسمت بحثي على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة ، عَرَّفْتُ في التمهيد بالشاعر وذكرْتُ مفهومي الضوء والظل وأهميتهما في الحياة ، واهتمام الناس بذلك منذ الأزمنة القديمة ، وأثر ذلك في الثقافات والمعتقدات عبر مصادر الأضواء والظلال في هذا الكون ، بعد ذلك جاءَ المبحث الأول على ذكر الرمز والإيحاء الشعري في الصورة الضوئية ، وقسمته على مطلبين ، المطلب الأول جاء تحت عنوان ثنائية الضوء والظل ، وأتى على ذكر المعاني الخصبة التي ترمز إلى الأمل وديمومة الحياة ، وجاء المطلب الثاني تحت عنوان القيم غير المباشرة للضوء والظل.

وجرى البحث في موضوع المخيلة الشعرية ودورها في استحضار عوالم الجمال المرئية والمتخيلة ، وبعد ذلك جاء المبحث الثاني تحت عنوان جمال الصورة الضوئية ، وقسمته على ثلاثة مطالب ، كان المطلب الأول تحت عنوان شعرية البصر ، وجرى البحث فيه في استشراف المرئيات

والتركيز على أشكالها وأبعادها ، وجاء المطلب الثاني تحت عنوان الفضاء الضوئي وتم التركيز فيه على ذكر الخيال الخصب الواعي في تعامله مع الفضاءات الحالمة بإشراقات الأمل ، أما المطلب الثالث فقد جاء الاهتمام فيه على ذكر الحركة والسكون في الضوء والظل وما امتازا ببعد حركي يوقظ الأحاسيس ويؤثر في المشاعر ، ثم جاءت الخاتمة لأذكر فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وإني بذلت هذا الجهد في محاولة مني للتعريف بمفهوم الضوء والظل عند هذا الشاعر بطريقة انتقاء النصوص المناسبة للدراسة ، وما توفيقي إلَّا بالله ، والله من وراء القصد.

التمهيد

1- بطاقة تعريف بالشاعر :

ظافر الحداد : هو " ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله بن خلف الجذامي الاسكندري ، المعروف بالحداد ، الشاعر الأديب ، روَى عنه الحافظ السلفي وطائفة من الأعيان ، وتوفي بمصر في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة "[1] ، وصف الطبيعة والرياض والبساتين والمطر والثلج والنواعير والكوانين وأبدع في ذلك.

2- الضوء والظل :

الضوء لغة : " الضَّوء والضُّوء بالضم معروف : الضياء ، وجمعه أضواء ، وهوَ الضَّواء أو الضياء "[2].

الضوء اصطلاحاً : " المؤثر الخارجي الذي يُحدث الإحساس بالضوء "[3] ، ويحدد الأشياء بأبعادها وألوانها ، تدركه حاسة البصر ، والضوء يرمز للسعادة ويعبر عن الحب والحياة والفرح ، ويوحي بالرقة والأناقة والبراءة والتفاؤل والصدق.

الظل لغة : " نقّيض الضَّح (الشمس) ، وبعضهم يجعل الظل الفيء ، قال رؤبة : كل موضع تكون فيه الشمس فتزول عنه فهو ظل وفيء ، وقيل الفيء بالعَشي والظل بالغداة "[4].

الظل اصطلاحاً : " الظلال ما هي إلَّا نتيجة لاعتراض الأجسام المعتمة لمسار الأشعة الضوئية المنتشرة في خطوط مستقيمة "[5].

والظل مساحة يُحجب عنها مصدر الضوء المتسلط على شكل ذي أبعاد محددة ، يمنع وصول الضوء ليتكون خيال أو ظل تأتي أبعاده تبين ذلك الشكل ، ويأتي على مراحل من التعتيم بين الضياء والظلمة ، والظل يوحي بالرقة والأناقة والسحر والهدوء والنشوة والاستقرار والتلبث.

وظاهرتا الضوء والظل موضوع رئيس في معتقدات كثير من الناس في الأزمنة القديمة ، واستمر ذلك الاعتقاد عند بعض الأقوام في الزمن المعاصر ، وعبد كثير من الشعوب النار عبر أزمنة متعاقبة ، كونها مصدر الضوء والعطاء والقوة ، وعبد أقوام آخرون الشمس والقمر والكواكب ، وجاءَ ذكر ذلك في المحاجّة التي حدثت بين إبراهيم (عليه السلام) وقومه الذين كانوا يقدسون الأجرام السماوية ، ويتخذون أصناماً لعبادتها.

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾[6] وشغلت ظاهرة النهار بضيائه والليل بظلامه أذهان الناس عبر العصور ، واهتموا بظاهرتي الخسوف والكسوف ومصادر الضوء بأشكالها والنيازك والبرق والصواعق ، وفسروا ذلك على وفق فلسفاتهم ومعتقداتهم ، وانتبهوا إلى ظاهرة الظل بمستوياته والظلام بأنواعه واجتهدوا في تفسيرها ووضع الإجابة للأسئلة المحيرة التي كانت تدور في أذهانهم.

إنَّ ثنائية الضوء والظل من أبرز الظواهر التي استرعت انتباه المسلمين ، جاءَ ذلك في حركة الشمس ومنازل القمر ، لتحديد مواقيت مضبوطة للعبادات ومنها الصلاة والصيام والحج عبر ظاهرتي الإشراق والظلام بتدرجاتها.

قال تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾[7] ، وقال تعالى آمراً عباده المسلمين بصيام شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ ﴾[8] ، والمقصود بالشهر هلال رمضان أول ولادته ووضوح رؤية ضيائه ، وذكرَ الله سبحانه وتعالى الشمسَ والقمر كونهما من آياته ونعمهِ على عباده ، جاءَ ذلك في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[9] ، والأمثلة كثيرة في نصوص قرآنية ذكرت النجوم والكواكب بزينتها ودلالتها للمسافرين ، والنيازك والصواعق بمظاهرها الضوئية.

إنَّ القرآن الكريم مصدر العلم والثقافة الأول ومصدر العبادات والمعاملات للمسلمين منذ نزوله ، أثرى عقولهم بمفاهيم واضحة عبر ذكر ظاهرتي الضوء والظل وما يتعلق بهما ، ولم يقتصر على الأشياء المرئية عبر الدلالة الصريحة بل شمل ذلك الدلالة الإيحائية للنور والظلام ، التي تعني الإيمان والكفر ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟

أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[10].

ومن البديهي أن يكون للإنسان المسلم الذي نشأ في مجتمع مثقف بتعاليم الإسلام واطلع على ذلك امتياز خاص بفهم معنى الضوء والظل وإلمام بذلك ، ويبدو أَنَّ الشعراء بما أُوتُوا من ثقافة وامتلاك أدوات فنية وبما امتازوا به من أذواق رفيعة هم أكثر الناس إدراكاً وفهماً لظاهرتي الضوء والظل بما يجعلهم يوظفونها في أشعارهم بشكل امتاز بالروعة والبهاء ، ويتوقف ذلك على مهارة الشاعر في توظيف الظاهرتين ، واختيار الأضواء والظلال التي تتناسب وتشكيله الشعري وتتفق مع جوهرها ، بشكل يعين المتلقي على استحضار الرؤية البصرية ليهتدي إلى ملامح الصورة التي يشكل الضوء والظل أبرز ملامحها ، أو الصورة المشحونة بدلالات الضوء والظل بشكل إيحائي ، ويشارك الشاعر مشاعره وتجربته الشعرية التي " تستمد نسغ حياتها من وجود الشاعر الوجداني وحضوره الحسي وآفاقه التأملية في جو خاص يختلف كل الاختلاف عن الأجواء الاعتيادية لا في الشكل فقط بل في تكوينه كذلك "[11].

لقد أدرك الشعراء أنَّ للضوء طاقة في الإشعاع وبث النور ، وإنَّ للظل طاقة فيما يوحي به من الأناقة والسحر والانشراح والشعور بالاستقرار ، بدلالة معاكسة للضوء بانسجام واضح وبلا ضدية ، وأغتنم الشعراء هذه الطاقات ووظفوها بما يناسب الفضاء الضوئي لأيٍ منهم بشكل يجعل المتلقي يفهم أساليبهم ويدرك أفكارهم عبر التأمل والإحساس.

إنَّ الشاعر المبدع لديه من المهارة ما يجعل تشكيله الشعري حاضنة خصبة لصوره الشعرية ، ومنها الصورة الضوئية ، وغالباً ما يوظف الشاعر طاقة الألوان في الصور الضوئية لارتباط الأضواء بالألوان ، فبدون الأضواء لا تتضح رؤية الألوان ، ويبدو أنَّ العلاقة بينهما تبدو أكثر وضوحاً مع اللون الأبيض ، ذلك اللون الذي يرمز إلى " الطهارة والنور والغبطة والفرح والنصر والسلام "[12].

وتكون العلاقة بين الظلمة واللون الأسود بدلالة تحددها الحالة النفسية للشاعر حال توظيفه هذا اللون في الصورة الضوئية ، واللون الأسود يدلُّ أحياناً على الحكمة والرزانة ، وهو " رمز للوقار والعظمة وعلو المكانة "[13] ، وهو ملبس علماء الدين ، ويدل في أحيان أخرى على اليأس والتشاؤم والكآبة ، وفي مثل هذه الحالة يرمز إلى " فقدان الضوء واللون وهو خير رمز للظلام ولعدم الطهر وللحزن "[14].

إنَّ الصورة الضوئية سبيل إلى تصوير الطبيعة بما يثير الإدهاش والاستبشار في النفوس ، وهذا ما بدا لي في الصورة الضوئية التي تجسد ثنائية الضوء والظل في شعر ظافر الحداد ، الذي وصف مظاهر الطبيعة بدقة ، وبشاعرية مكنتهُ من رصد أعماق الظلال ، ومن توظيف القيم الضوئية في

صوره الفنية بما يثير النشوة في النفوس ، ويجلب إليها الانشراح والراحة ، ويشعرها بالهدوء والطمأنينة.

المبحث الأول

الرمز والإيحاء الشعري في الصورة الضوئية

يمتاز الإنسان بقوة إدراكه الظواهر والأشكال بحاسة البصر التي ترصد ما يقع تحت الأنظار على سطح الأرض ، وما فوقها من ظواهر مرئية في السماء ، وهنالك فرق بين الضياء والنور ، فالضياء ينبعث من مصدر يشع به والنور هو ما ينعكس من سطح وقع عليه الضوء ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[15].

إنَّ معرفة الفرق بين الضياء والنور في التسمية يصعب على كثير من الناس الذين لم يشغلوُا أنفسهم بإدراك المفهوم الدقيق لكلا التسميتين ، فتراهم يقولون عن كل إشعاع يجعل المكان واضحاً ضوءاً ، أما المهتمون في البحث والدراسة في هذا الميدان يفرقون بينهما لإدراكهم ما يميز هذه الظاهرة عن الأخرى ، ويبدو أنَّ الشعراء أدركوا ذلك الفرق أيضاً ، وعرفوا أنَّ الضوء سبب في جلب أنظار المتلقين لإمعان التركيز في تشكيلاتهم الشعرية المتضمنة الصور الضوئية ، كما أنّهم ضمَّنوا تشكيلاتهم الشعرية قيماً لونية مباشرة أو غير مباشرة يبعثُها الضوء ، وتأتي الدلالة على ظاهرتي الضوء والظل بالإيحاء الذي يأتي بما تحمله الكلمات من طاقات تساعد في إثراء التجربة الشعرية . إنَّ إدراك ذلك يحتاج إلى استحضار الصورة البصرية لرصد الأضواء المتداخلة أحياناً في الصورة الفنية واستعادة التصورات بقدرة إبداعية ، وكلما كانت الصورة أكثرَ ألقاً أوحت بدلالات الفرح والأُنس وَالبِشر ، ودلَّتْ على معنى " يتجاوز الرؤية المادية للعين إلى رؤية أعمق داخل أحاسيس الإنسان يبرز الحقيقة الروحية له "[16] ، وهذا لا يعني أنَّ الدلالة الإيجابية تقتصر على الأضواء وبأنَّ الظلال تطمس الظاهرة الجمالية للصورة الفنية ، بل يعني أنَّ الظلال تزيد هذه الصور بهاء وبأنها توحي بالراحة والحب والجمال ، وغالباً ما يجد الشاعر قيماً ضوئية في أعماق الظلال تكمل الصورة وتثريها عبر ثنائية الضوء والظل ، لأنهما " متكاملان متوحدان في الدلالة ، متآخيان في التعبير بنسب تتفاوت ، وَرُبَّ لمسةٍ من لمسات الظل تغني لوحة من لوحات التصوير ، أو حزمة من الضوء تغني قصيدة غمرها الظلام ، وَرُبَّما كان الضوء والظل متعادلين في إبراز كنه الشعور في لوحة أو قصيدة ما "[17] ، ويأتي الإيحاء أحياناً في هذه الثنائية بما يفوق ما تشكله الصور ذات الألوان المتداخلة ، ويمكن البحث في ذلك تحت موضوعين هما ثنائية الضوء والظل ، والقيم غير المباشرة للضوء والظل.

المطلب الأول

ثنائية الضوء والظل

يدل الضوء على معانٍ خصبة ويرمز إلى الأمل وديمومة الحياة ، ويعطي الذهن زخماً دلالياً في التأويل ، يأتي ذلك بإيحاءٍ خفي ، ويدلُّ الظلُّ على الشعور بالمجهول عبر كثافته وامتداد ظلمته ، ويرتبط الضوء والظل بعلاقة توافقية ، فقوة الضوء تزداد مع تدرج الظل في كثافته حتى تصل إلى الظلمة ، وحينها يتوهج الضوء بشكل أكثر . يرى دافنشي أنَّ الظلَّ ينشأ من شيئين مختلفين ، أولهما جسماني والثاني روحاني ويقصد بالجسماني الجسم المعتم ، والروحاني الضوء ، فيشترك كلٌّ من الضوء والجسم في خلق الظلِّ[18] ، وطالما أثارت هذه الثنائية المتكونة من اجتماع هذين الشيئين المتناقضين انتباه الناس عبر الرصد والمراقبة لترتبط بالتعبير عن الحالة النفسية ، وطالما أثارت هذه الثنائية الدهشة في نفوس الشعراء ، وأوجدت في أذهانهم الأفكار التي تغني الصورة الفنية في التشكيل الشعري الذي ينظمه الشاعر بأسلوب يمتاز بالتوتر والإيحاء ، و " يظل الظلام والضياء من لوازم الطبيعة النفسية لأنَّ للنفس عالمها المزيج بين الظلام والضياء ، ومن هذا التأليف بين النقيضين يترعرع الحسُّ الشعري والعالم المليء بصراع النقائض "[19] ، وعندها يحقق الشاعر قواعد التشكيل الشعري.

ويأتي التدرج الضوئي نتيجة لهذه الثنائية موضوعاً خصباً للشعراء يبدو فيه تأثير ملامح الزمان والمكان ، ليوظفوه في تشكيلاتهم الشعرية ويرسموا ملامح الصورة الفنية من مظاهرة ، وَتُعَدُّ الطبيعة المصدر الأوفر للشعراء ، استمدوا منها موضوعاتهم.

إنَّ مظاهر الجمال الرئيسة بتظافر الضوء والظل في ثنائية وانسجام أثارت اهتمام ظافر الحداد فأكثر من وصفها بأسلوب يدل على شاعريةٍ فذّةٍ وذوق رفيع ودقة نظر ، ومن ذلك وصفه غياب الشمس واحمرار الأُفق وقت الأصيل ، مع ظهور الهلال في منظر غاية في الروعة ، عند مكان يمتاز بالأُنس وَالبِشرِ والإلفة ، بمائِهِ الجاري ونسيمِهِ العليل وأصوات الطيور الصادحة ، جاءَ ذلك في قوله[20] :

والشمسُ قَدْ حَوتِ المغاربُ شطرَها	فَزَنَتْ بِعينِ الذاهبِ المُتَحسِّرِ
وَالجوُّ مِنْ شفقِ الغروبِ مُفَروزٌ	كَحديقةٍ حُفَّتْ بِوَردٍ أحمرِ
وَبَدا الهلالُ لِليلَتينِ كأَنَّهُ	فِتزٌ حَوى تفاحةً مِنْ عنبرِ
والماءُ يُبدي للنسيم تَمَلُّقاً	فَيسيرُ بينَ تَدرُّجٍ وَتَكسُّرِ
وَالطيرُ يُطرِبُ شجوُها أَغصانَها	فَتظلُّ بينَ تَمايلٍ وَتَّبختترِ
وَالليلُ يختلسُ النهارَ كَعُصبةٍ	مِنْ آلِ حامٍ خلفَ آل الأصفرِ

امتازت هذه اللوحة بروعة الوصف وتكونت من صور متلاحمة بانسجام ، تثير الدهشة في توظيف ثنائية الضوء والظل عند غياب الشمس وذهاب النور تدريجياً ليغطي الأفق لون ذهبي يزينه هلال ناصع البياض ، وتبدو الألوان المتداخلة بانسجام في منظر بهيج ثم يأتي الظلام ويغطي الفضاء فيبدو المكان بمنظره الحلمي والماء ترتج صفحته بحركة النسيم ليعكس أنواراً متأرجحة ، وتفوح رائحة الزهور المنعشة وتصدح الطيور بأصواتها ، إنَّ توظيف الضوء والظل جاء في طريقة محكمة زادها

التشبيه المتكرر بهاءً بطريقة مبتكرة وهو يصف الشفق الأحمر والهلال وقدوم الليل ، وبدت معالم الصورة الضوئية المتعاقبة بانسجام ، وكأنَّما أراد الشاعر أن يأخذ بالمتلقي إلى شواطئ الألفة ليشاركه تجربته الشعورية.

وتأتي ثنائية الضوء والظل في لوحة وصف الشاعر فيها موقد نارٍ يتألق جمره ثم يخمد عن رمادٍ يزيد المنظر إلفةً وجمالاً في انسجام بين الأضواء والظلال في مكان حلمي دافئ ، جاءَ ذلك في قوله[21] :

كأَنَّ جيوشَ الفحمِ مِنْ فوقِ جمرِهِ ... وَقدْ جُمِعاً فاستُحسِنَ الضِّدُّ بالضِّدِّ
غَدائِرُ خَــودٍ فرَّقَتْها وَقَــدْ بــدَتْ ... على خضَرٍ مِـنْ تحتِها حُمرةُ الخَدِّ
فلَّمــا تَناهَـى صِبغُهُ خِلْـتُ أَنَّــهُ ... فُصوصُ عَقيقٍ أو جنَى زهرةِ الوردِ
إلى أنْ حكى بعدَ الخمودِ رمادُها ... غُباراً مِـنَ الكافورِ فـي قطعِ النَّــدِّ

جاءَتْ هذهِ اللوحة تصف دالة اجتماعية في ذكر الموقد الذي يشيع في المكان الدفءَ والإلفة فضلاً عن المنظر الحالم الذي يجمع بين ثنائية الضوء والظل في اشتعال النار وتوقد الجمر ثم خموده وغلالة من نار ودخان بانسجام بين الأضواء والظلال ، جاء وصفها بتشبيه الفحم بضفائر الفتاة الحسناء ، والجمر بخدودها ، وبفصوص العقيق والزهر الأحمر ، وتشبيه الرماد بالطيب من الكافور والندِّ ، وجاءت صور الجمال في أسلوبه بأدقِّ الالفاظ المعبرة عن صور ضوئية توحي بالعطاء والتجدد وعمد إلى تكرار التشبيه ذلك الأسلوب البياني الذي " يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغنِ أحدٌ منهم عنه "[22].

وفي لوحة أخرى يصف فيها شاعرنا عدة مشاهد وقعت أمام ناظريه تمثل العطاء والحركة في صورة مركبة تنسجم فيها الأضواء والظلال في وصف البَرَد والغيم والرعد والبرق ، وكانون النار في يوم بارد جاءَ ذلك بأجمل وأرق الألفاظ الدالة على الذوق الرفيع ودقة الوصف والخيال الخصب ، في قوله[23] :

ويــومَ بَــردٍ عقـودُهُ بَـــرَدُ ... لها سُلوكٌ مِـــنْ هَيدبِ المـطـرِ
ينثرُهُ الجـوُّ ثــمَّ تنتظمُ مِنْــهُ ... الأَرضُ فــي الحـالِ كــلَّ منتشرِ
فَهوَ يحاكي الثُّغورَ في اللــونِ ... وَاللَّطَفِ وَعَذبِ الرُّضابِ وَالخَــصَرِ
وَجمــرُ كانــونِنـا يمـــاثلُهُ ... فَعـــلا بمـا يَبثُّهُ مِـــنَ الشَّـــرَرِ
كأَنَّ ذاكِ الشَّرارَ مِنْ ذَهــبٍ ... قُراضُـــهُ تستطـيرُ مِـــنْ نَقـــرِ
والغيمُ يبكــي والرعدُ يضحـكُ ... والبـرقُ يديمُ ابتســامَ ذِي خَضَـــرِ

شغلتِ الأضواءُ والظلال مساحة واسعة في هذهِ اللوحة لمشاهد وظفها الشاعر في رسم ملامح الصور الفنية في وصفه يوماً بارداً تتساقط فيه حبات البرد وتتناثر على الأرض بلونها الأبيض المشرق الوضاء تحاكي ابتسامة الحسناوات ، ويلجأ الناس في هذا اليوم إلى موقد النار للاستماع بدفئِهِ ومنظره

الجميل والشرار يعلو لهب النار كما تتطاير قُراضة الذهب من يدِ صانعِ الحلي الذهبية أثناء العمل ، ويضيءُ البرق أركان الفضاء الذي يدوي فيه الرعد مع زخات المطر الغزيرة ، ويبدو لي أنَّ كلمات الشاعر توحي بعالمٍ أليف أضاءَ أركانه بالإيحاء.

إنَّ الصور الضوئية المتلاحقة التي تنتظم فيها الأضواء والظلال في لون البَرد وقتامة الغيم والشرار المتطاير من لهب الموقد مع كثافة الدخان ولون الرماد الهامد ، ولمعان البرق عبر الغيوم المتراكمة تمثل ثنائيات غاية في الجمال للضوء والظل بتدرج ضوئي ، وظفها الشاعر بأسلوب التشبيه المتكرر لتأتي الصور الضوئية المنسجمة معبرة عن منظر يوحي بالعطاء ويبعث في النفوس الطمأنينة والراحة والهدوء.

المطلب الثاني

القيم غير المباشرة للضوء والظل

تمثل الطبيعة المصادر المحسوسة التي يتم اعتمادها في الوصف عند الشعراء ، فضلاً عن كونِها المعين الذي لا ينضب لخيالاتهم ليصوروا الحياة بما يتناسب وراؤهم ، وجاءَ المشهد العياني للطبيعة في سكونها وحركتها المتسارعة المقترنة بجمال المناظر المرئية وعبق الأرض وأريج الزهور والفضاء الواسع ليمد المخيلة الشعرية لظافر الحداد بصور وظفها بأسلوب بعيد عن جمود الحركة باستخدامه لغة شعرية اكتسبت قدرة على التعبير في استحضار عوالم الجمال المرئية والمتخيلة بطاقات من الدلالات الإيحائية وشحنات من العواطف تثير الدهشة وتوقظ المشاعر وتجلب إلى النفوس البهجة والسرور ، إنَّ " لكلِّ تجربة شعرية ناحيتان : الافكار، والعواطف والخواطر المجردة ، وهذه طبيعتها لا شعرية ، ثم العملية الشعرية نفسها التي تقوم على وضع هذه الأفكار في قوالب خاصة معتمدة على تكرار الوزن والنغمة والقافية الموسيقية مع مزاوجتها بتلك الأفكار والخيالات والعواطف "[24].

إنَّ الالفاظ التي تدل على الضوء والظل بصورة مباشرة أو غير مباشرة ترسم ملامح الصور الضوئية ، وتوحي بمعانٍ خصبة وشفافية عالية تحتاج إلى متلقٍ يمتاز بذكاء حاد وفطنة في استشعار الجمال فيها.

وتبدو القيم غير المباشرة للضوء والظل في أبيات شاعرنا التي يصف فيها الروض وأزهارَهُ والغيثَ وماءَه المنهمرَ ، ومظاهر الجمال المنبثة في المكان في قوله[25] :

منابتُ أزهارٍ يكــرّرُ نشــرُهــا ... على القَطرِ شُكراً ذائعاً وَمحامدا

تَخطُّ يـدُ الأَنواءِ فيــها صحائفاً ... فَينشدُها راوي النســيمِ قصــائدا

فَلِلهِ ذاكَ الروضُ لِلغيثِ مادحاً ... وَللهِ ذاكَ الغيــثُ لِلروضِ رافـدا

كُنوزٌ بدَتْ لو لا ذُبولٌ يصيبُـها ... لأَصبحَ ما عندَ الصيارفِ كاسدا

كأَنَّ الأَقاحــيَ والبهــارَ دراهمٌ ... خِــــلالَ دنــــانيرٍ تقابلُ ناقـدا

وَلِلسوسنِ المفتوحِ أَبــواقُ فِضةٍ ... تقابلُ من حمــرِ الشقيقِ مطاردا

إنَّ الدلالة على الضوء والظل في هذه اللوحة أتت في قيم غير مباشرة في أغلبها ، عبر الالوان الزاهية في الزهور المتفتحة ونضارة الخضرة ، فيرى المتمعن فيها الأضواء برؤية حُلمية عبر إشراقة الأقاحي والسوسن بالبياض الناصع ، وتألق البهار باللون الاصفر ، مع حمرة الشقيق ، وكأنَّ الناظر إلى هذه الروضة التي روتْها مياه الغيث وداعبَتْها النسائم يرى الدراهم الفضية والدنانير الذهبية متألقة بين يديه في كرنفال ضوئي وجمال منظر بهيج يوحي بالحركة وتجدد الحياة ويخفي في طياته تدرجاً ضوئياً وظلالاً رقيقةً زادت المشهد بهاءً وحسناً.

وفي لوحة أخرى وصف فيها الشاعر منظراً تزينه أزهار الأقاحي والنرجس التي تجلب الأنظار بإشراقتها يأتي الإيحاء بالضوء والظل عبر ذكر النَّور المتفتح بظلاله اللطيفة المنعكسة على بساط أخضر ، جاء ذلك في قوله[26] :

فكأَنَّما زهـــرُ النـباتِ قلائدٌ نُثِرَتْ على صفحاتِ بسطِ السندسِ
وَالوردُ يخجلُ حينَ قَبَّلَ خدَّهُ ثغرُ الأَقاحي مِـــنْ عيونِ النرجسِ

في هذهِ اللوحة جاءَ الإيحاءُ بالأضواء والظلال عبر الألوان التي أشرقت في المكان وأضاءت دواخل النفوس وأسرَّتِ الأنظار المتمعنة في تفاصيل المشهد الجميل ، جاءَ ذلك بما ترمز إليه الألوان وظلالها بإيحاءات " تستجيب لتطلعات الذات الراغبة في الكشف عن طبقات الأعماق "[27].

وتأتي الكلمات توحي بالمعاني الواردة في موضوعات الأبيات الواردة في لوحة وصف فيها شاعرنا مرجل الحمام الذي ضمَّ حيزاً يلتهب ناراً ذات حرارة عالية يعلوها اللهب ويتصاعد منها الدخان تسخن المياه وتبعث في أرجاء الحمَّام دفئاً يريح النفوس ويجلب إليها المتعة والاسترخاء والراحة ، جاء ذلك في قوله[28] :

وَروضٌ لهُ مِنْ جلمدِ الصخـرِ أزهارُ خَصِيبٌ إذا ما أُضْرِمَتْ تحتَهُ النارُ
تجنَّبَ قـربَ الشمـسِ والبدرِ دائماً فأكثرُ مـا فيـهِ شمـوسٌ وأقمـارُ
تَولَّدَ فيـــهِ مِـــنْ جحيمٍ وَجنـةٍ مـزاجٌ لتعديلِ المزاجـاتِ مُختـارُ

يبدو لي أنَّ المشاهدَ في هذه اللوحة اختلطَتْ بحركة تعاقبية في حيّز تتوقد فيه النار ويتوهج فيه الجمر ويعلو اللهب ، وصفه الشاعر في نسيج شعري محكم أتى على ذكر البناء النامي للصور الموحية بدلالة القوة والحركة عبر الحرارة الشديدة ، التي تهيّء المكان الدافِئ وماء الاستحمام الذي يطهر الأبدان ويبعث فيها النشاط ، إنَّ المتلقيَ الذي يمتاز بالانتباه واليقظة يدرك الحالة الدلالية للمفردات وتتحقق له المفاجئة ويعيش جو المتعة التي يلمسها في الإيحاء بالأضواء والظلال عبر ذكر الجمر واللهب والدخان وضيق الحيز الذي يشمل مكان الاشتعال.

لقد وَفَّقَ الشاعر في إيجاد عنصر التوافق بين النقائض في حرارة النار ومتعة الاستحمام في ذكر الجحيم والجنة ، ويبدو أنَّهُ كان واعياً لتفاصيل المشهد حيث أَمدَّهُ ذوقه الرفيع بأسباب اختيار الألفاظ

ورسم ملاح الصور الضوئية الجميلة ، " فالشاعر حين يكون هادئَ الشعور ، متزن المزاج تشي صوره بيقظة حسية وذوق جمالي رفيع "[29].

المبحث الثاني

جمال الصورة الضوئية

يشكل الضوء مادة أساسية في ملامح الصورة الفنية في الشعر يضيءُ محتواها ويزيدها خصوبة وبهاءً ، فضلاً عن الدلالات المعنوية ، يأتي ذلك بتوالي الصور التي تنمو وتتكامل في مكانٍ معطاء يتسم بمباهج الجمال ، ويتيح مثل هذا الظرف الملائم للشاعر رصد جزئيات المناظر المرئية ووصفها في صور تتباين بين شاعر وآخر بسبب اختلاف الثقافات الرؤى بينهم.

إنَّ الطبيعة الجميلة ومظاهر العمران والرياض والبساتين والأنهار في البيئة التي عاش فيها ظافر الحداد أمدته بمناظر راقت لناظريهِ فوصفها وصفاً رائعاً بفضل امتلاكه شاعرية ساعدته في التدقيق في التفاصيل وأجزاء المشاهد وشملت الفضاء الضوئي المُشاهد بما في ذلك من حركة وسكون في الأضواء والظلال ، وأتى ذلك في موضوعات جمال الصورة الضوئية ضمن المطالب التالية :

المطلب الأول

شعرية البصر

يظهر أثر الحواس واضحاً في رصد ملامح الأشياء وتحديد أبعادها تتصدرها حاسة البصر في دورها المباشر في استشراف المرئيات والتركيز في أشكالها وأبعادها ، وهي " أدقُّ الحواسِّ وَأكملُها وَأفتحُها ، فالبصر يمدُّ العقل بأكبر قدرٍ ممكن من الأفكار وَأكثرها تَنوُّعاً "[30].

وحاسة البصر لها الدور الأكبر في رسم ملامح الصورة الضوئية في الشعر ، ويأتي شعر ظافر الحداد عبر ألفاظ استخدم فيها تقنيات الأضواء والظلال في وصفه مظاهر الطبيعة والعمران والرياض والمياه بتشكيلات شعرية امتازت برشاقة الألفاظ ورقتها ، فضلاً عن دقتها في رسم أبعاد الصورة الفنية.

إن نباهة شاعرنا في رصد المرئيات ، وذوقه الرفيع في استشعار ملامح الأشياء وأبعاد الأشكال ودقة ملاحظته البصرية مكنتهُ من الاهتداء إلى الظاهرة المرئية ، ومعرفة الارتباط الوثيق بين الالوان والأضواء ، فـ " لو لا الضوء لمات اللون ولانعدمَتْ حيوية النور ، فالنور هو اللون ، واللون هو النور "[31].

ولنتلمس قوة الرصد التي وصلت إلى أدق تفاصيل المشهد جمالاً في لوحة لشاعرنا ، تضفي عليها الأضواء المتألقة حسناً في خضرة الرياض وَإشراقة الزهور ، في مكان حلمي أليف يَسُرُّ الناظرين وتطيب فيه النفوس وتزداد شعوراً بالسعادة والهناء ، في قوله[32] :

هلْ تغنينا حماماتُ الحِمَى ... في ظِلالِ الأَيكِ بينَ الكُثُبِ
بغناءٍ أعجميٍّ لفظُهُ ... يُفهمُ السَّمعَ وَإنْ لم يُعربِ

يُطـربُ الـسامعَ حتى أَنَّهُ يقتـدي فيـهِ بمُـلادِ القُضُـبِ
وَكـأنَّ الروضَ فيـهِ غادةٌ تـتهادى بالثيـابِ القُشـبِ
وَالأقـاحي كَلآلٍ نُظِمَتْ في حواشي كوكبٍ مِـنْ ذهـبِ
وَبَهـارٌ باهـرٌ هيئتُـهُ مثلُ جرمِ الشمسِ عـنـدَ المغربِ
كالدنـانيرِ بـدَتْ ألـوانُـهُ تعدمُ الإعـدام كَـفُّ التُّـربِ

في هذه اللوحة جاء النص الشعري ملتئماً وبدت صورته توحي بقوة الملاحظة والتخيل ، نقلت إلينا إحساس الشاعر وعبرت عن عاطفته بألفاظ ربطت بين الألوان والأضواء في وصف مشهد جلب نظر الشاعر بأضوائه وظلاله وأفياء الشجر وخضرة الروضة اليانعة وتفتح الأقاحي والبهار ، فانسجمت الألوان الزاهية المشرقة بضيائها الأبيض والأصفر تحاكي اللآلئ والذهب وقرص الشمس عند المغيب ، جاء ذلك في توظيف الأدوات الفنية بوعي وَإدراكٍ فريد في خلق عالم روحي بديل عن عالم الواقع.

وفي لوحة أخرى عبَّرَ الشاعر فيها عن معاني الأُنس ، جاءت العين مرآة للروح ، وبدت حاسة البصر متيقظة في رصد معالم الجمال المشرقة في يوم تساقطت فيه حبات البَرَد من السحاب ، ونثرتها الرياح على الأرض في منظر غاية في الحسن ، وكان الشاعر واعياً في انتقاء الألفاظ الرقيقة التي جاءت في نسيج الشعر لتعبر عن الظاهرة الضوئية في قوله[33] :

وَيـومٌ ضـاحكٌ يـبـكي ضعيـفُ معـاقدِ السَّـلكِ
إذا انهمـلَتْ سحائـبُـهُ وَدمِعـي خِلْتَـهُ المحـكي
يشـوبُ بِبرْدِهِ بَـرَداً كمبسمِ مَـنْ حـوى مِلكـي
كـأنَّ الريـحَ تنثرُه على الأرضينَ فـي وشكِ

امتازت حاسة البصر في استشراف المشهد الجميل بتفاصيله الدقيقة في يوم أضاءً فضاءَه انعكاس الأضواء من الغيث والبَرَد ، جاءَ ذلك في صورة فنية أطَّرَها الشاعر بهالة من الأضواء والظلال ، وجاءت ملامحها معبرة عن صوت الاعماق ، وقد وظف الشاعر الأفعال في لغة شعرية أعطت اللوحة صفة الحركة والحيوية ، وبدت الأضواء وهي توقظ في ذاكرته طيف الحبيبة بابتسامتها الوضاءة.

وتأتي فاعلية الرصد بدقة النظر في تفاصيل منظر الكانون بناره المتوقدة من فحمه المشتعل ورماده المتراكم تحت الجمر والدفء والراحة في مجلسٍ امتاز بالإلفة والسرور ، جاء ذلك في قوله[34] :

أنظرْ إلـى ما ضُمَّنَ الكانونُ من فحمٍ وَجمـرِ
هـذا يزيـدُ وذا يبيدُ كما أنطوَى ليـلٌ بفجرِ
فكأنمَّا رُسلُ الوصـا لِ تواتـرَتْ بـزوالِ فجرِ
أو كـالعقودِ تضمَّنَتْ نوعينِ مـن سَبجٍ وَشَذرِ

أو جمرةِ الوجنـــاتِ لا حَ شقيقُها في آسِ شَعرِ
يلجأ إلى الكانونِ فـــي كـانـــونَ مُفتقرٌ وَمُـــثرِ
فمقامُهُ في البيتِ أَنفـع فيـــــهِ مــن نمطٍ وَسترِ

في هذا المشهد لم يقتصر دور البصر على رصد الجزئيات بل شمل الربط بينها لِيعينَ الذهن على تصور أشكال الأشياء المرئية ثم يقوم الشاعر بوصفها بألفاظ تدل على المعنى المتخيل بأسلوب التشبيه في توظيف ظاهرتي الضوء والظل بمهارة وإحساس مرهف ، فبدَت له المناظر المتقدة والقاتمة تحاكي عقوداً تنتظم بحبات الخرز الأحمر والأسود وتذكره بثنائية الليل والنهار ، وتعيد إلى ذاكرته طيف الحبيبة بمحياها الجميل وحمرة خديها وشعرها الأسود الفاحم.

ويبدو أنَّ نفس الشاعر تميل إلى مجالس الأنس والسمر وتألفها كما يتضح في أبياته التي ذكر فيها مجلساً في بناء متقن الصناعة عند بركة يصبُّ فيها نهر صافي الماء تنتظم الأشجار على جانبيه تزهو بأغصانها المزينة بالأزهار ذات النَّور المتألق في أغصانها الوارفة الظلال ، جاء ذلك في قوله[35]:

لهُ بَياضٌ يَغُضُّ الطرفَ لامعُهُ فَالعينُ تلحظُ منهُ الحُسنُ في المُلَحِ
كأنَّـــهُ خَلَلَ الأغصـانِ لؤلؤةٌ نظمُ الزُّمرُّدِ فيـــهِ غيـــــرُ مُنفسحِ
كأنمَّـا النهرُ فيهِ سيفُ مرتعشٍ يرُومُهُ بيـــنَ مقبـــــوضٍ وَمُطَّرَحِ
يلقي إلـــى البركةِ الغَنَّاءِ فائضَةُ ماءً يَشفُّ شفيفَ الخمرِ فـي القَدحِ

امتازت هذه اللوحة بوصف هذا المكان العامر بما يزينه من انسجام اللون الأبيض مع الأسود ، فضلاً عن المناظر الساكنة والمتحركة وأمواج النهر المتكسرة والأشجار الزاهية بأزهارها بفضل دقة النظر في الجزئيات المكملة للمشهد ، وجاءَ دور الخيال الخصب في رصد ثنائية الأضواء والظلال ، واعتمد الشاعر أسلوب التشبيه الذي زادَ النص حسناً ودقة تعبير.

المطلب الثاني

الفضاء الضوئي

أتاحت المناظر الجميلة وما حولها فضاءً واسعاً أمدَّ خيال ظافر الحداد بصور تداعت على وعيه فوظفها بأسلوب امتاز بالإدهاش والغرابة ، ويبدو أنَّ شاعرنا " ميال إلى التعبير عن العوالم الشعورية المجردة بطريقة تجعله يستثمر مدركات العالم وأشياءه الحسية للقيام بمهمة الأداء وذلك بإعادة تشكيلها وفق ما يتصوره من معانٍ ودلالات تعجز اللغة المباشرة عن الإفصاح عنه "[36] ، لذلك فإنَّ الصورة في شعره تمتاز بالعطاء الفني بفضل الأضواء والظلال والألوان الزاهية ، ومن المناظر التي وصفها روضة جميلة بالخضرة والأزهار تتجاوب في فضائها أصوات الطيور لتملأ المكان وما حوله أنساً وفرحاً ، جاء ذلك في قوله[37] :

وَللنســـيم العليلِ الرطـبِ وسوسةٌ فيهنَّ كالسِّرِّ بينَ الرِّفقِ وَالصَّــخبِ
وَالوُرقُ مِنْ خَلِلِ الأغصانِ مُسمعَةٌ طوراً غِناءً وَطـــوراً نَــوحَ منتحبِ
وَالرَّوضُ ينشرُ مِـــنْ نَوَّارِهِ حُلَــلاً مِمَّا تَحُوكُ يَـدُ الأَنـــواءِ وَالسُّحُبِ
وَالأَقحوانةُ تحكِـي ثغـــرَ غانيةٍ تَبسَّمَتْ فيهِ مِـنْ عُجْبٍ وَمنْ عَجَبِ

إنَّ المتمعن في هذه الصورة يجدُ حضوراً واضحاً للأضواء والظلال ، يعطيها ديمومةً ووضوحاً ، عبر إشراقة العناصر المكملة للصورة الضوئية المركبة المتآلفة العناصر ، أضاءَتْ المكان وَأشرقت في فضائه بنهارها الذي يكشف عن مظاهر الحياة وَالبِشرِ في روضة يمدُّها الغيث بقطر ناصع البياض ، أضفت عليه ظلال الغيوم منظراً حالماً يتواصل مع جمال الموجودات التي وصفها بأسلوب التشبيه المتكرر لتكتمل الصورة الجميلة بفضائها الرحب الواسع وآفاقه التي تغري البصر لاستشراف عناصر غير مرئية فيها إيحاءٌ بالجمال والدهشة.

وفي لوحة أخرى وصف شاعرنا روضة أفصحت مظاهرها عن جمالٍ رائع يكتمل بتواصل مع الأفق الرحب والفضاء الفسيح ، جاءَ ذلك في قوله[38] :

وَلِلصَّبا خَلَلَ الأغصـــانِ وسوسةٌ كالصَّبِّ لِلحـبِّ يشكوهُ وَيُعتِبُهُ
والروضُ يبعثُ مسكاً مِـنْ نوافجِهِ وَالطَّلُّ يفتقُهُ والـــــريحُ تجلبُهُ
وَقَدْ تبسَّمَ نَــورٌ مِـــنْ كمــائمِهِ فَلاحَ فُضِّيُّهُ الزاهـــي وَمُذهِبُهُ
وَقَدْ تبدَّتْ دنانيرُ البهـار على الـ كثبانِ تَطرِفُ رائيـــها وَتُعجبُهُ
صُـــــفرٌ كَناظرتَي ليثٍ تكنَّفَهُ ليلٌ وَحانَ مِـــنْ صَيدٍ تَوثبُهُ

إنَّ الصورة الفنية التي رسم ملامحها الشاعر بالأضواء والظلال وعناصر الجمال الأخرى جاءت معبرة عن منظر بدا من الروضة والأفق المحيط بها ثم الفضاء الحالم الذي أضفى على المكان حسناً وبهاءً ، وجاء ضياء الآفاق مع إشراقة الزهور بألوانها لتهيّئ للناظر مجالاً أوسع للأنس ومساحة رحبة للبصر لاستشرف البعد المترامي أمام الأنظار ، ويبدو أن الصور انثالت على ناظريه وتمثلها ذهنه ووصفها بتشبيهات رائعة تعهدها خياله الخصب لتأتي هذه الصور مُعبرة عن الحركة والتجدد لاسيما البيت الأخير بألفاظ رقيقة ولغة شعرية زادتها ظاهرة التدوير نغماً وإيقاعاً جميلاً ، وللتدوير في نظر نازك الملائكة " فائدة شعرية وليسَ مجرد اضطرار يلجأُ إليه الشاعر ، ذلك أَنَّهُ يسبغ على البيت غنائية وليونة لأنَّهُ يمدُّهُ وَيطيلُ نغماتِهِ "[39].

وَأجدُ الحالة ذاتها في لوحة أخرى وصف الشاعر فيها منظراً مشابهاً لما سبق وَأبدعَ فيه ، ذاكراً معالم الجمال والفضاء الرحب وسعة المكان الأليف ، جاءَ ذلك في قوله[40] :

كــأنَّ الأَقاحـــيَ وَالبَهـــارَ دراهـــمٌ خِـــــلالَ دنـــانيرٍ تقابـلُ ناقِـدَا
وَلِلســـوسنِ المفتـوحِ أبـــواقُ فِضـــةٍ تُقابلُ مِـــــنْ حُمرِ الشقيقِ مَطاردَا
فَلـــمْ أَرَ جمـــــراً قبلَـــهُ مُتلَـــهِّباً إذا لَمسَـــتُهُ الكَـــفُّ أَلفَتْهُ بـــاردا

وَإنْ نثَرتْ أوراقَـــهُ الـــريحُ خِلْـتَها قصاصةَ حُمرِ اللَّاذِ صيغَتْ رفائدا

شنوفُ عَقيقٍ صِيـغ مـــن سبجٍ لها معاليقُ مـا باشرْنَ فيـها معـــاقـدا

تمثل هذه الأبيات لوحة شعرية تصف معالم الفضاء المشرق والمكان الأليف الذي يتوشح بأنوار الأزهار المتفتحة من الاقاحي والبهار والسوسن الفضية والذهبية أعطت الصورة الضوئية إشراقة وانسجاماً تدعو المتلقي للاستئناس بمظاهر جمال الأزهار التي تحاكي الجمر الملتهب وشرائط الحرير الأحمر والأقراط المحلاة بالفصوص السوداء ، وتبدو الصورة الضوئية وهي " تنطلقُ بسرعة الحركة ، وتتضمن قَدراً لا يُستَهانُ بهِ مِنَ التلوين والمزج إلى جانب التفصيل في الصفات ، مِمَّا يدعو إلى التأمل وطول النظر "[41].

إنَّ الصور المركبة المتكاملة التي أَضفَتْ عليها ظاهرتا الأضواء والظلال إشراقاً وجمالاً استوعبت معالم الجمال لدى شاعرنا في أمكنةٍ حالمةٍ وَفضاءاتٍ رحبة وبيئة أليفة تجلب إلى النفوس الأُنس والسرور.

المطلب الثالث

الحركة والسكون في الضوء والظل

يخضع الشاعر المظاهر المرئية التي يريد وصفها للمعايير الفنية الجمالية ، ويحررها من المقاييس الدقيقة لإبعاد الأشياء والمكان إرضاءً لنوازع نفسه وانسجاماً مع مشاعره التي تعبر عن صوت الأعماق.

ويمتاز ظافر الحداد بامتلاك روح شفافة تستجيب لدواعي الشعر ، لذلك تجده يرصد الحركة والسكون في ظاهرتي الأضواء والظلال ليعبر عن الشعور المتنامي في نفسه.

إنَّ الأضواء المشرقة والظلال الراقصة تمد الشاعر بمناظر جميلة وَبُعدٍ حركي وتوقظ فيه الإحساس وتحفز شاعريته فيختار ألفاظاً مناسبة للغته الشعرية تختزن طاقة في التعبير عن المعاني ، ولا يقتصر ذلك على التركيز على إشراقة لون بعينه بل يشمل ذلك التدرج اللوني في اللون الواحد الذي يعكس تقلبات ضوئية بين السطوع والخفوت ، تضيء أركان الصورة الفنية التي يؤطرها الشاعر بشكل فني ، و" هي نتاج تتعاون فيه كل الحواس وكل الملكات ، وَإنَّها بمثابة الإلهام يأتي نتيجة قراءة الشاعر ومشاهداته وتأملاته ومعاناته ، إلى جانب قوة ذاكرته وسعة خياله وعمق تفكيره "[42].

إنَّ الخصائص الفنية لظاهرتي الأضواء والظلال في الحركة والسكون كانت حاضرة في وعي شاعرنا فوظفها في شعره وَأجاد في ذلك عبر رصده الآفاق الرحبة في نظرة فاحصة وذوق رفيع في اختيار العبارات الموحية بالمعاني الخصبة ، وتبدو ملامح الحركة والسكون في ظاهرتي الأضواء والظلال في أبيات للشاعر يصف فيها بركة جميلة يصبُّ الماءَ فيها جدولٌ تتكسر أمواجه وتعكس أضواءً تجلب الأنظار إلى جانب ظلال شفافة ، يزين الزهر جوانب البركة والجدول بنَورِها الساطع وعبيرها الذي يملأ المكان ، جاءَ ذلك في قوله[43] :

وفي البركةِ الغنَّاءِ للطَّرفِ مَسرَحٌ نَهى ما انطوَى مِنْ جفنِهِ عَنْ مآبِهِ
يُبلِّغُنا عَـــنْ زهرِها وافـــدُ الصَّبا سلاماً تَولَّـــــى المِســـكُ رَدَّ جوابهِ
إذا جمَّشَ الغدرانَ واهـــي نسيمِهِ حَكَتْ زرداً فُضَّـــتْ أعـالـــي عبابِهِ
وَينسَلُّ في ساحاتِها كُـــلُّ جدولٍ كما سُـلَّ مطرورُ الشَّبا مِـــنْ قرابِهِ

تبدو شاعرية ظافر الحداد في هذهِ الأبيات عبرَ دقة نظره في تفاصيل المشهد ، وكانت البركةُ مركز التقاء الأَنظار بصفحتها التي عكست أشعة شمس الصباح ، كما ذكر الشاعر نَور الزهر وعطره الفواح وحركة ماء الجدول وَأضواءه الراقصة ، بطاقة إيحاءٍ ذي بُعدٍ حركي ، إلى جانب شفافية الرؤية اللونية في ظاهرتي الأضواء والظلال ، وَبدا له ماء الجدول كسيفٍ سُلَّ مِنْ قرابه ، في مشهد يجلب السرور والنشوة والهدوء والراحة إلى النفوس ، ويدعوها إلى الاستجمام والتنزه مع استنشاق أريج الزهور وعبق الأرض المرتوية بالمياه.

وفي لوحة أخرى وصف فيها شاعرنا منظراً مقارباً للمشهد السابق في مظاهر جماله ، تتشابه رؤى الشاعر في ذكر التفاصيل ، وهو يذكر منظر الخليج وفضاءه الجميل في الاسكندرية التي طالما اشتاقَتْ نفسُهُ إليها ، جاءَ ذلك في قوله[44] :

فَيـــا حبَّـذا ذاكَ الخلـــيجُ الذي بَدا مِنَ الحُسنِ ما يُهلِي عَنِ الشرب واردَا
وَقَـــدْ راقَ لِّمـا رَقَّ عـذبُ زلالِـهِ فأَصـــبحَ مـــلآنَ المـــواردِ زائِـــدَا
ترَى منهُ تحتَ الريح دِرعاً وَجوشناً وَسيفـا بِـــلا غَمـدٍ إذا كـــانَ راكِـــدَا
كأَنَّ الصَّبا لمَّـــا أَثـارَت حبابَـهُ تَمُرُّ علـــى سيـــفٍ حـــديدٍ مَبـــارِدَا

إنَّ شاعرنا امتاز بشاعرية في مستوى استطاع عبره رصد حركة الأَضواء والظلال في صورها المتداخلة في عناصر الطبيعة التي تحتضن الخليج ، وَإنْ لم يذكر بعضَها ، في أنوارِها الساطعة وَأَفيائها الحالمة ، وتجدد حركتها بفعل التحول المتلاحق لضوء الشمس وحركة النسيم ، وما تحدث من أثرٍ في الماء تمثل حياةً وموتاً للضوء في آنٍ واحدٍ ، بتكسر الشعاع ، فتتجه الأَنظار نحو أعماق الخليج بأسراره المحجوبة عن الأنظار ، لِتمدَّ الصورة بفيضٍ مِنَ العطاءِ يثريها بموجوداتٍ ثابتة ومتحركة ، " وهنا نجدُ أنفسَنا بإزاء لعبة التكامل ما بينَ قطبي الداخل والخارج ، الداخل برؤيته والخارج بعناصره التي تخضعُها الذات الشعرية لتشكيلاتها الطبيعية التجريبية الحلمية "[45].

إنَّ تدرج الأَضواء بين السطوع والخفوت ، وَالظلال بين التلاشي والقتامة تمثل حركة وسكوناً بانسجام وتوافق يزيد الصورة الضوئية حركة وحياة وبهاءً.

الخاتمة

سأذكر في أدناه النتائج التي توصلت إليها بشيءٍ من الدقة والتركيز :

1- إنَّ مصادر الظاهرة الضوئية والظلال التي جاءت في شعر ظافر الحداد كانت متنوعة ، جُلُّها من مظاهر الطبيعة وبعض المرئيات ، وشملت أيضاً مصادر أخرى ذات دلالات إيحائية للضوء والظل.

2- لم يقتصر مفهوم الضوء والظل على دلالاته الحسية والفيزياوية ، بل شمل دلالات أخرى تتعلق بالفرح والحزن ، ووضوح الرؤية وَتشتيتها.
3- يؤدي تأويل مفهوم الأضواء والظلال إلى استنتاج معانٍ خصبة ، تثري النصوص الشعرية ، وتوحي بالجمال والعطاء ، وتبعث في النفوس الطمأنينة والراحة والهدوء.
4- انتقى الشاعر ألفاظه في لغته الشعرية بشكل جعلها تكتسب قدرة على التعبير في استحضار عوالم الجمال المرئية والمتخيلة في ظاهرتي الأضواء والظلال ، وطاقات في الدلالات التي تثير الدهشة وتوقظ المشاعر ، وتعبر عن العواطف والخواطر.
5- وظف الشاعر الألوان الزاهية بطاقة تشفُّ عن الأضواء الناصعة التي أعطت التشكيل الشعري صورته الضوئية المعبرة عن موضوعاتها ، عبر الأَضواء والظلال الثابتة والمتحركة.
6- تعامل الشاعر مع ظاهرتي الأضواء والظلال بنظرة ثاقبة ودقة نظر وقوة بصيرة نافذة ، في وصف مظاهر الطبيعة الجميلة ، والمناظر الحالمة والفضاءات الواسعة.
7- يبدو لي أنَّ الشاعر وَفَّقَ في إيجاد عناصر التوافق بين النقائض في توظيف الأَضواء والظلال.
8- أعطى الشاعر اهتماماً واضحاً للتدرج اللوني ضمن اللون الواحد ، الذي يوحي بتجدد الحياة وديمومة الأحداث وتسارعها ، وتعاقب المشاهد الجميلة.
9- وظفَ الشاعر ثنائية الأضواء وَالظلال في رسم صورة فنية غاية في الروعة والجمال ، تستوعب الموضوعات وتعبر عَّما يجول في خاطره.
10- انطلق الشاعر في وصف ظاهرتي الأضواء والظلال من أمكنة تمثل نقطة التقاء الأنظار ، ومركز إشعاع الجمال ، لتضفي على ما حولها مِن مشاهد إشراقاً يَسرُّ الناظرين ، كما في وصف البرك والجداول وَالرياض وَأغصان الشجر.
11- اعتمد الشاعر أسلوب التشبيه ليقربَ إلى المتلقي المعنى المراد ، ويصفَ له المشاهد التي تقع من نفسه موقعاً حسناً ، يجلب إليها السرور وَالأُنس والراحة.
12- جاءت الإيقاعات في الموسيقى الداخلية والخارجية بما يتناسب وحركة الأضواء والظلال ، وإشراقة الأزهار والماء ، وَحبَّات البَرَد ، وَأدى التدوير وظيفته في غنائية اللغة الشعرية وليونتها وَإطالة النغم.

هوامش البحث

(1) معجم الأدباء ، إرشاد الاريب إلى معرفة الأديب ، ياقوت الحموي : 4 / 350.
(2) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة : ضوأ.
(3) مبادئ الرسم ، محي الدين طالو : 46.
(4) لسان العرب ، مادة : ظلل.
(5) القيم التشكيلية والدرامية للضوء والظل ، شكري عبد الوهاب : 44.
(6) الأنعام : 76 ، وينظر : الأنعام : 77 – 78.
(7) الإسراء : 78.
(8) البقرة : 185.
(9) يونس : 5 ، وينظر : يس : 40 ، لقمان : 29 ، الرحمن : 5 ، نوح : 16 ، النبأ : 13 – 14.
(10) البقرة : 257.
(11) الطريق والحدود ، مقالات في الأدب والمسرح والفن ، يوسف عبد المسيح ثروت : 278.
(12) الرسم واللون ، محي الدين طالو : 171.
(13) اللون في الشعر العربي القديم ، زينب عبد العزيز العمري : 19.

(14) اللون ، محمد يوسف همام : 8.
(15) يونس : 5 ، وينظر : نوح : 16 ، النبأ : 13.
(16) فن الضوء : ماهر راضي : 29.
(17) الضوء والظل بين فنَّي الشعر والتصوير ، رُلى عدنان الكيال : 32.
(18) ينظر : نظرية التصوير ، ليوناردو دافنشي ، ترجمة : عادل السيلاوي : 315.
(19) السيميوطيقا والعنونة ، د. جميل حمداوي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس والعشرون ، الكويت ، 1977 : 79.
(20) ديوان ظافر الحداد ، تحقيق : د. حسين نصار : 131.
(21) ديوانه : 61.
(22) كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم : 249.
(23) ديوانه : 134.
(24) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال : 384.
(25) ديوانه : 65.
(26) ديوانه : 165.
(27) رمزية الالوان في الشعر المأتمي ، د. عبد السلام المساوي ، مجلة عمان ، العدد 108 ، حزيران ، 2004 : 35.
(28) ديوانه : 98.
(29) المدخل إلى نظرية النقد النفسي – سيكولوجية الصورة الشعرية نموذجاً - زين العابدين المختاري : 81.
(30) تمهيد في النقد الحديث ، روز غريب : 22.
(31) الضوء واللون ، بحث علمي وجمالي ، فارس متري ظاهر : 8.
(32) ديوانه : 40.
(33) ديوانه : 43.
(34) ديوانه : 135.
(35) ديوانه : 81.
(36) البنيات الدالة في شعر أمل دنقل ، عبد السلام المساوي : 92.
(37) ديوانه : 19.
(38) ديوانه : 65.
(39) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة : 114.
(40) ديوانه : 95.
(41) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ، (عصر الطوائف والمرابطين) ، د. حازم عبد الله خضر : 85 – 86.
(42) الصورة في شعر بشار بن برد ، د. عبد الفتاح نافع : 99.
(43) ديوانه : 48.
(44) ديوانه : 94.
(45) دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر ، قادة دقاق : 297.

Sources and references

The Holy Quran.

1. The Significant Structures in the Poetry of Amal Dunqul, Abd al-Salam al-Masawi, Arab Writers Union Publications, Damascus, 1994.
2. An Introduction to Modern Criticism, Rose Gharib, Dar Al-Kashouf, Beirut, 1st Edition, 1971.
3. The Significance of Medina in Contemporary Poetic Discourse, Leaders of Dakkak, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 2001.
4. The Office of Zafer Al-Haddad, investigation by: Dr. Hussein Nassar, Misr Press, Cairo, 1969.
5. Painting and color, Mohi Eddin Talo, Atlas Library, Damascus, 1961.
6. The image in the poetry of Bashar bin Barad, d. Abdel Fattah Nafeh, Dar Al-Fikr, Amman, 1st Edition, 1983.

7. Light and Shadow, a scientific and aesthetic research, Faris Metri Zahir, Dar Al-Qalam, Beirut, 1st Edition, 1979.
8. Light and Shadow between the Technician of Poetry and Photography, Rola Adnan Al-Kayyal, Ministry of Culture, Syrian General Book Organization, Damascus, 1st Edition, 2011.
9. The Road and the Borders, Articles on Literature, Theater and Art, Yusef Abd al-Masih Tharwat, Iraqi Ministry of Information Publications, Baghdad, 1977.
10. The Art of Light, Maher Rady, The Color Labs Association, Cairo, 2004.
11. Issues of Contemporary Poetry, Nazik al-Malaika, House of Science for the Millions, Beirut, 5th Edition, 1978.
12. Plastic and Dramatic Values of Light and Shadow, Shukri Abdel Wahab, Horse International Foundation, Alexandria, (D.T.).
13. The Book of the Two Industries, Writing and Poetry, Saeed bin Yahya bin Mahran, Abu Hilal al-Askari, T: around the year 395 AH, edited by: Ali Muhammad al-Bajawi, Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Dar al-Fikr al-Arabi, The Modern Book Foundation for Printing, Publishing and Distribution, Kuwait, 2nd edition, (Dr. T).
14. Lisan Al-Arab, Ibn Manzoor: Muhammad Ibn Makram, 630-711 AH, Dar Al-Hadith, Cairo, 6th floor, (d. T.).
15. Color in Ancient Arabic Poetry, Zainab Abdel Aziz Al-Omari, The Anglo-Egyptian Press, Cairo, 1989.
16. Color, Muhammad Yusuf Hammam, Al-Etimad Press, Egypt, 1930.
17. Principles of Painting, Muhyiddin Talo, Damascus House, 3rd Edition, 1983.
18. Introduction to the theory of psychological criticism - the psychology of the poetic image as a model - Zain Al-Abidin Al-Mukhtari, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 3rd Edition, 1983.
19. The Literature Dictionary, Guiding Al-Arib to Know the Writer, Shihab al-Din, Abu Abdullah, Yaqut bin Abdullah al-Rumi al-Hamwi, 577-626 AH, edited by: Dr. Omar Farouk Al-Tabaa, Al Maarif Foundation for Printing and Publishing, Beirut, 1st Edition, 1992.
20. The Theory of Photography, Leonardo Da Vinci, translated by: Adel Silawi, The Egyptian Book Authority and the Family Library, Cairo, 1st Edition, 2005.
21. Modern literary criticism, Muhammad Ghanimi Hilal, House of Culture, Dar Al-Awda, Beirut, 1973.
22. Description of the animal in Andalusian poetry (the era of Al-Taifa and Al-Murabitin), Dr. Hazem Abdullah Khader, General Cultural Affairs House, Baghdad, 1987.

Patrols

1. The symbolism of colors in deceased poetry, d. Abd al-Salam al-Masawi, Amman Magazine, Issue 108, June, 2004.
2. Semiotics and Addressing, Dr. Jamil Hamdaoui, The World of Thought Magazine, Volume Twenty-fifth, Kuwait, 1977.